من كتاب

رؤى ومواقف

الجزء الأول

محاضرة ألقاها سماحة العلامة الشيخ عبد المنعم الزين

في مؤتمر الفكر الإسلامي في طهران – الجمهورية الإسلامية الإيرانية

بعنوان "الصحوة الإسلامية"

في ٢٣ رجب الحرام سنة ١٤١٢ هجرية الموافق لـ ٢٩ كانون الثاني ١٩٩٢ ميلادية

الصحوة الإسلامية

مؤتمر الفكر الإسلامي
طهران - الجمهورية الإسلامية الإيرانية

٢٣ - ٢٥ رجب الحرام ١٤١٢ هجرية
٢٩ - ٣١ كانون الثاني ١٩٩٢ ميلادية

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

إعتادت وزارة الإرشاد في الجمهورية الإسلامية في إيـران منذ تأسيسها أن تقيم مؤتمرًا سنويًّا يحضره عدد كبير من العلماء والشخصيات الإسلاميـة ورجال الفكر من جميع أرجاء العالم. وقد أقامت هـذا المؤتمر منـذ البدايـة في الأيام الأخيرة قبيل مناسبة نجاح الثورة الإسلاميـة المباركة، حتى يتسنى لمن يرغب من المدعوين الإشتراكُ في أعياد الثورة المجيدة.

وكنت ولا زلتُ أُلبي الدعوة من حين لآخر حسبما تسمح الظروف والأعمال. وفي مطلع هـذا العـام ١٩٩٢م عُقد المؤتمر تحت شعار « أفكار الإمام الخميني رحمه الله ». وكان في ضمن العناوين التي وُضعت تحت هذا الشعار عنوان ﴿ الصحوة الإسـلاميـة وكيفيـة الإستفادة منـها ﴾. وقـد اخترت هـذا الموضوع لأتحدث فيه بصراحة تامة أمام القيادات الإسلامية القادمة من جميع أقطار الدنيا، وخصوصًا إلَى الإخوة قادة الجمهورية الإسلامية، لأنهم السلطة الوحيـدة في العـالم التي تحملت هموم المسـلمين، ورفعت شعار الدفاع عن حقـوق المظلومـين، وشُنَّت عليـها بسـبب ذلك حـروب ضاريـة عسكريـة وإقتصاديـة وإعلاميـة. كما عـانى ـ ولا يزال يعاني ـ الموالون لهم والمدافعون عنهم في أي بقعة على وجه الأرض الكثيرَ من المتاعب والمراقبة والمضايقات.

وبين هذا وذاك برزت فئات كثيرة جديدة تحمست لرفع شعار السلطة الإسلامية، لأن الإسلام إنما كان لأجل إسعاد البشر، وتنظيم الحياة طبقًا لموازين العدل والحرية الحقة، واحترام حقوق الإنسان، وتثبيت قواعد الأمن والسلام على كل شبر من أرجاء المعمورة.

وقد أدى هذا الحماس غير المدروس ولا المنظَّم إِلَى هفوات كثيرة حركت حقد العالم العلماني الكافر أو المتدين المتعصب ضد الإسلام، بل ضد الإيمان والمؤمنين. وقد نتجت بعض هذه الهفوات عن الإندفاع بلا روية كافية، ولا درس وافٍ للمناطق والظروف أو للأساليب التي يمكن اتباعها لتكوين مجتمع متدين، أو بيئة صالحة للتبشير السليم، أو تهيئة الحد الأدنى من صلاح القاعدة لإنشاء سلطة إسلامية تحكم بشريعة القرآن.

إن بعض قصار النظر، ومن ليست لديهم خبرات كافية في السياسة والإجتماع، أو في الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ظنوا أن ما تحقق في إيران بعد جهود مضنية خلال أجيال متعاقبة، وبعد تربية جيوش من العلماء لشعب متمسك بأهداب الدين الحنيف على مر القرون، ظنوا أنه يمكن أن يتحقق كل ذلك في يوم واحد في أي بلد يحكمه الكفر، أو في أي بلد آخر ينتمي إِلَى الإسلام انتماءً ظاهريًّا فحسب، كما هو الحال في جُلِّ البلاد التي انحصر فيها الإسلام على مستوى المجاملات، أو ميراث العادات والطقوس. وما ذاك إلا لجهل الناس بالإسلام جهلًا شبه مطبق، بل لرفضهم الإطلاع على أحكامه وما يحويه من سبل إسعاد البشر ونظم حياتهم، لِما ركز في أذهانهم من الصورة القاتمة عن الدين، وذاك لأمرين اثنين :

الأمر الأول : نُـدرة وجود المربين الأكفاء، ممن لديهم مؤهلات عاليـة في مجال التوعية والتربية.

الأمـر الثـاني : تَجَذُّرُ مواريث العـدو المستعمر، الذي زرع في نفوس شباب المسلمين أسوأ الأفكار حول الإسلام، حتى ظن الجاهلون أن الإسلام مجرد طقوس جوفاء. وفي أفضل الحالات هو عندهم عبارة عن جمعية خيرية تهتم بتدبـير شؤون الفقراء والمعوزين. هـذا إذا لم نقل بأنهم ظنوا أو اعتقـدوا بأن الإسلام كان صالـحًا لفترة قديمـة عفا عليها الزمن، ولم يعد يصلح لعصرنا الحـاضر. وقـالوا إن التخلف المريـع للمجتمع العـربي في العصر الجـاهلي كان يستدعي خروج مصلح فـذٍّ ينقذهم مـن ظلمات الجهـل والتخلف، وليقضي على والفوضى العارمة التي عصفت بكل شؤون حياتهم. أما اليوم وقـد تمدن الإنسان، واجتاز مسافات شاسعة في مجال العلم والتقنيـة، وأصبح لكل بلـد جهاز دولة يحميه في ظل نظام متقدم مُحكَم، فقد قالوا بعدم حاجـة الإنسان للدين، سواء كان على مستوى السلطة أو الإجتماع. وانحسر الديـن عندهم حتى سجنوه في كتلة من الطقوس لا تسمن ولا تغني من جوع.

وكانت تصرفاتٌ غير حكيمة، أثمرت عواقب وخيمة مؤلمـة، سنبقى نتجرع صابَها (أي مرارتها) في ميدان العمل الإسلامي سنين متطاولة، وسوف يدفع العاملون والمجاهدون المخلصون ثمنًا باهظًا للتصرفات الغبية والحمقاء التي تنم عن مبلغ جهل هؤلاء الثلـة من النـاس. وإنما قلت (الحمقـاء) لأني أروض نفسي على حسن الظن، وأربأ بها عن التعامل مع الآخرين على أساس الظنون السيئة، أو كَيْل التهم وتوزيعها بلا حساب على النـاس قبل البحث والتثبت،

وقبـل معرفة الحقيقة بأجلى صورها. [1]

ولما بدأتُ أخطُّ السطور الأولَى من هذا البحث وجدت نفسي أغوص في بحر محيط متلاطم الأمواج سحيق القرار من الأفكار والهموم ومشكلات المسلمين، والتفتيش عن أنسب الحـلول الناجعـة لها. وحقًّا قد يتحير المرء في بعض المواقف من أين يبدأ الحديث، أو كيف يعالج المشكلات، كما لا يعرف إلَى أين سينتهي به المطاف. على أنني أعرف جيدًا ضيق الوقت في مثل هـذه المؤتمـرات، إذ لا يُسمح لأحـدٍ أن يحتـل المنصة ليحبس أنفـاس النـاس فـترة طويلة. والحـديث حول هموم المسلمين حـديث شـجون، ينقضي العمر ولا ينتهي مثلُ هذا الحديث. لذلك فقد آثرت أن أصوغ كلمتي إشـارات إلَى أهم الأمور العتيدة والملحة، متكلًا على براعة السامعين في صيد المرامي. وقد قيل فيما مضى : « والحر تكفيه الإشارة ».

وعرفانًا بالجميل، وأداءً لواجب الشكر، لا بد لِي من تسجيل التعليق

---

(١) كتبتُ هذا الكلام قبل الحركات التي اندلعت سنة ٢٠١١م في عـدد من البـلاد العربية، وأزالت بعض الحكام، منها تونس وليبيا ومصر واليمن والعراق وسوريا وغيرها. ثم عانت هذه البلاد وما حولها من الفوضى والحروب الشرسة ما لم نعهده ولم نسمع به خلال القرون المتطاولـة. واجتمعت عـدة أسباب لعـدم نجـاح تلك الحركات، منها الجهل بالشريعة الإسلامية لدى المنادين بالثورة على الحكومات الفاسدة بُغية إقامة حكم إسلامي في نظرهم. ومنها أن جلَّ هؤلاء كانوا من صناعة المخابرات الأجنبية، وعلى الأخص المخابرات الأميركية والإسرائيلية ! وأنى للجاهل أو العميل أن ينتج نظامًا إسلاميًّا !!! لذلك فقـد شَوَّهت هـذه الحركات صورة الإسلام لدى الغرب، كما دمرت الأوطان خدمة للأعداء.

الذي انفرد هـذا الخطاب بالحظوة به، والذي تفضل بـه رئيس المؤتمر آيـة اللـه جنتي فور انتهائي من إلقاء خطابي حيث قال : ﴿ يجب ترجمة هـذا البحث وطباعته في هذا اليوم. وأطلب من المؤتمر دراسة ما جاء فيه بكل عناية.﴾ وقد بدا عليه التأثر والإهتمام الشديد.

والآن، أقـدم للقـارئ العزيـز النصَّ الأصليَّ الكامل للبحث بصيغتـه الأصلية، وترتيب فقراته كما كتبتُها، سواء منه ما ألقيتُه في المؤتمر، أو ما طبع منه في ذلك اليوم، أو ما بقي من سطور أو كلمات في أوراقي الخاصة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الصحوة الإسلامية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه نبينا محمد وآله الغر الميامين.

سادتي العلماء، أيها الإخوة المؤمنون.
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حديثي إليكم أيها السادة الكرام حديث الوفاء والولاء، والإصحار بالصراحة، كما أنه أدب الطاعة لمن وجه الدعوة لعقد هذا المؤتمر الكريم. وإن كنت أحسب نفسي في هذا الموقف كناقل التمر إلَى هجر. لكنها إشارات من الذكرى ألَوِّح بها من موقعي المتواضع، ولا شك أن الذكرى تنفع المؤمنين.

يتحدث الناس عن صحوة إسلاميَّة حديثة، ويُفْرِطُ بعضٌ ويُفَرِّطُ آخرون، أو يُعْرِبُ بعضٌ ويُعْجِمُ آخرون في تفصيل أثواب للصحوة، قد تكون جادَّةً مخلصة، وقد تكون على قياس منفعة خاصة، أو تتناسب طردًا أو عكسًا مع الظروف والمواقف. وربما كان البعض واعيًا مدركًا لأبعاد الحديث عن الصحوة، وربما كان غُثاءً جرفه السيل العَرِمُ، كما تجرف السيول كلَّ أنواع الزَّبَد، حيث لا أسس ثابتة ولا وزن يمنح القوة والقدرة على الدفاع عن النفس.

وفي ظل هـذه الأجواء المتشتِّتَـة يَطرح سؤالٌ نفسَه أمـامنا بقوة : مـاذا عندكم أيـها المسلمون عن سائر النائمين من غيركم من الأمم ؟ هل صحا منهم أحد ؟ أم أن شعوب العـالم غيركم لا يزالون يغطون في نومهم العميق ؟ ثم مـا هو دور المسلمين ؟ وما هي واجباتهم تجاه الصحوة الإسلامية الحديثة ؟

الحقيقة أيـها الإخوة الأعزاء أن جرس الإيقـاظ في القـرن العشرين لم يـدَعْ نائـمًا سوى صُمِّ الآذان وعُمْي القلوب. والحقيقة كذلك أن في المسلمين غـثًّا وسمينًا، ومخلصًا وعدوًّا. كذلك فيـهم الجـادُّ المـدرك، والعـامل بصمت للحفاظ على استمرار الخط البـياني وصعوده لصحوة المسلمين، حتى تؤتي ثمارها الزكيَّـة. وفي المسلمين المتحمس بشدة، لكنه إما جاهل يريد أن ينفعك فيضرك، لحمقه واندفاعه بلا وعي ولا رويَّة، وإما لأن حماسه غطاءٌ يتستَّر بـه ليخفي نفاقًا أو عمالة لأعـداء الإسلام. وقـد عرف تاريخ المسلمين كثيرًا ممـن دسُّوا سمًّا في العسل، وكان ضررهم على الإسلام وأهلـه أبلغ وأفدح من ضرر الأعداء المفضوحين.

في فجر هـذا القرن صحا الشرق والغربُ ومزقوا الدولة العثمانية التي حكمت باسم الإسلام أكثر من سبعة قـرون، وعانت عدة أمراض ألـمَّت بها، ممـا لم يسمح لها بالبقاء، ولا بالدفـاع عن نفسها. وراح الغرب يُتمُّ بنـاء دولتـه الحديثـة على أسسٍ ماديَّة صرفـة، لا حظَّ للدين ولا للقيم السماوية في أيٍّ من أركانها. ومردُّ ذلك إلَى ما عانـاه الغربُ من ظلم الكنيسة وجبروتها، وتعسُّف القيمين على الدين المسيحي وتخلُّفهم الذهني والعلمي. أما نور الإسلام فقد كان سجين أهله، ودُمية الزعامات التي حكمت بـاسم الإسلام، واستخدمتـه

جنديًّا ممتازًا يحمي لها مصالحها وسياساتها. وراح الإسلام ضحية الحقد على جور الكنيسة وفسق السلطات الإسلامية وانحطاط المسلمين بصورة عامة. وأما الشرق الشيوعي فقد دفن الدين، وكلّ ما يحويه قاموس القيم والروابط الأُسَرِيَّة والإجتماعية، وأنشأ دولة اعتمدت الإلحاد، وأسرفت في اعتبارها الإنسان مجرد آلة ينتج ويستهلك، ولا نصيب له في الحرية والتملك وثمار الجهود، ولا في حرية الرأي والعقيدة.

وبدأ على نطاق واسعٍ في الشرق والغرب استثمارُ التَّطوُّر العلمي والتقني، وأصابَ التسلُّحَ سهمٌ وافرٌ من اهتمام الدول الكبرى في سباق لم يعرف التاريخ له مثيلًا. وبيَّت كلٌّ منها نوايا الغدر والتسلط، مما حوَّل دنيا البشريَّة إلَى قلق يعصف بأمنها واستقرارها. وفي غمرة ذلك القلق حكمت النازيَّةُ ألمانيا واستولت على مفتاح السر لآلة عسكرية تدمر العالم في لحظات. وفَعَل الغرورُ والطغيان فعلَه في النفس النازية، ولم تستطع أن تستوعب ذلك الفتح الهائل في عالم التسلح، فساقها الجبروت إلَى إشعال فتيل حربٍ عالمية أودت بكبريائها وجبروتها أدراج الرياح، وأدَّت بها إلَى الإنهيار الذي خلَّف وراءه تلالًا من ملايين الجثث الآدمية، ودمارًا لثمرة قرون من الجهد والبناء.

وبعد استيلاء الكتلتين ـ الشرقية والغربية ـ على ألمانيا توزع السرُّ العسكري بين المنتصرين، فأسرعوا الخطى في سباق التسلح، يوازيه سباق آخر في مختلف أنشطة العلم والتقنية. ولم يحِنْ أصيل القرن العشرين حتى بلغ التطورُ ذروةً عالية، وأدَّت حربٌ باردة بين ماردي السلاح إلَى تمزق أحدهما (الإتحاد السوفياتي) بشكل ذريع. وما ذاك إلا لكثرة الخلل الذي فتك

في بنيانـه، بـدءًا بقيامـه على أساس الإلحـاد، وإنتهاءً بالثغرات الواسعـة التي أصابت بنيته الإقتصادية والإجتماعية، إضافة إلَى دور غامض تلفُّـه الشكوك، لعبه قادتُه الذين أودى بهم السقوط إلَى الهاويـة. وخُـيِّل للدنيـا أن الساحة قد خلت ولو إلَى حين لجبار واحـد يتصرف في العـالم كما يشاء، ويبني لـه نظامًا جديدًا كما يحلو له، طبقًا لمصالحه ومنافعه.

أما المسلمون، فالذي يبدو أن نومهم كان عميقًا للغاية، على الرغم من صيحاتٍ مخلصة متنـاثرة، إذ لم يوقظهم عنـد الفجر صخب الحـرب العالميـة الأولَى وسقوط الدولة العثمانية، ولا أزيـز الحرب الثانيـة وسقوط النازية عند القيلولة، مما سمح بقيـام كيان غاصب فـاجر على أرض فلسطين، فـراح يعبث بالمنطقة، ويتحدى شعور المسلمين، ويهتك حرماتهم، ويـدنس قبلتهم الأولَى في القـدس الشريف، ويقتـل ويشرد، ويستولِي على الأرض جـزءًا بعـد آخر، والمسلمون سادرون في غفلتهم. ونالَ العربَ خاصة من الإذلال والإهانة ما لم يعرفوا له سابقة عبر تاريخهم الطويل.

هذا من الناحية السياسية. وأما من حيث الوضع الديني فـإن انحطاط المسلمين قـد أخرهم عن دورهم القـيادي للعالم، وأثمر نتائج سيئة تعتصر لها قلوب المؤمنين، فقـد عبثت بهم أيـدي التبشير بكل وجوهه. فاليهود قد لعبوا دورًا خبيثًا في زرع الشكوك في قلوب ناشئة المسلمين، واستغلوا فرصة التقدم العلمي الغربي، وشـعورَ المسلمين بالنقص أمـام هـذا التقدم نتيجـةً لضعفهم، فصدَّروا إلَى البلاد الإسلاميـة ألوانًا من الفكر المسموم ـ كالشيوعية وغيرها ـ ممـا سمم عقـولَ الشـباب، وأخرجهم مـن دائـرة الإسلام ليرميـهم في أحضان

الكفر ومتاهات الضياع.

كذلك نشطت جمعيات تبشيرية ذات أقنعة ملونة، زيفت لأبناء المسلمين دينَهم، فارتدَّ الملايينُ منهم ليحملوا شارة الصليب. وبدأت ترتفع بشكل ملحوظ نسبةُ المسيحيين في بلاد المسلمين في آسيا وإفريقيا. هذا ودعاة المسلمين يرقصون طربًا إذا أسلم مسيحي واحد، بينما هم يجهلون أو لا يُعيرون انتباهًا للخسارة الفادحة في ارتداد ملايين المسلمين عن دينهم، إما إلَى الإلحاد كما حصل ويحصل كل يوم مع الشباب الذي يتلقى علومه طبقًا للبرامج الغربية أو مع أبناء الأثرياء وحتى الفقراء الذين يقلدون الشباب الغربي الخليع، أو في اعتناقهم المسيحية كما حصل في أندونيسيا، إذ تنصر منها أكثر من ستة ملايين مسلم خلال فترة وجيزة على ما رُوِيَ لنا [1]. وأما انخراط المسلمين في الأحزاب الكافرة فذاك الخطر الداهم والبلاء المبين، نظرًا إلَى سعة دائرته ويُسْرِ الخداع فيه. وإني لأشعر بالمرارة والأسى كلما رأيت أو تذكرتُ

---

(١) فور نزولِي عن المنبر تقدم إلَي أحد كبار العلماء وهو صديق قديم لِي منذ أيام دراستي في النجف الأشرف، واعترض على هذا الكلام بقوله: «من أين جئت بهذه المعلومات ؟ هذه مبالغة، وإندونيسيا بلد مسلم وليس فيها مسيحيون بهذا العدد.» وحاولتُ إقناعه بأن الأمر أخطر مما يتصور، لكنه لم يبال بمثل هذه الأخبار، لأنه يعتبرها مجرد مبالغات أو شائعات. ولم يمض وقت طويل حتى بدأت إرهاصات قيام دولة مسيحية جديدة تنفصل عن أندونيسيا بزعامة شنانا،الذي سماه الغرب قائد ثورة ورائد حريَّة، في وقت تصف فيه المدافعين عن بيوتهم وأعراضهم في لبنان وفلسطين بأنهم إرهابيون !!! ولم يلبث العالم حتى رأى انفصال تيمور الشرقية عن إدونيسيا، وولادة دولة جديدة قُوامُها ينوف على خمسة وعشرين مليون نسمة كان أهلها من المسلمين وارتدُّوا عن الإسلام. وأقول لهذا العالمِ الصديق ولغيره من العلماء النائمين: أين أنتم عما ترونه بأم أعينكم ؟!!!

كيف يُساق أبناءُ المسلمين كالقطعان إلَى حظائر الآخرين بلا أدنى تمنُّع، وليس من يهتف بهم : ﴿عودوا إلَى دياركم الأُولَى ديار الإسلام﴾. ولو أنَّ امرأً مات همًّا بعد هذا لما كان عندي مَلُومًا، بل كان به جديرًا.

وما إن حان أصيل هذا القرن حتى أذهل العالمَ يقظةُ مارد الإيمان والخير، وأرسلها الشريف المقدس الإمامُ الخمينيُّ صرخةً تدوِّي عبر الأجيال، يوقظ بها المسلمين بعد طول رقاد، ويضع عربة الفكر الإسلامي في خط مسارها السليم. ولا يزال وسيبقى هتافه يرن في مسامع الدهر : (أَفيقوا أيها المسلمون، فإن دياجير ليلكم قد تقطعت، وقد بزغ فجر عهد جديد للإسلام).

وعلى رغم أنف جبابرة إلحاد الشرق، وعتاة طغيان الغرب، وخبثاء المكر اليهودي، فقد هدَّ الإمامُ الخميني عرشًا من عروش الظُّلم والفساد والخيانة، وأرسى على أنقاضه قواعد النموذج الأول للدولة الإسلاميَّة المباركة في العصر الحاضر، على أساس الإيمان بالله الخالق المدبِّر والمشرِّع، والتراث الفكري والأخلاقي والتشريعي الذي وصل إلينا عبر القرون من نبع الفيوضات النبويَّة، ومعدن الطهر والعز رسول الله محمد وآله النجباء، صلوات الله عليهم.

حقًّا إن قيام الدولة الإسلامية هديَّةٌ نفيسة لا تقدر بثمن، حلَّت أمانة بأيدي المسلمين بعد طول عناء مرير. تُرى ما هو دور المسلمين الآن تجاه هذه الأمانة ؟ لا شك أن الجواب سهل علينا، لأننا سنجيب بلا تردد ولا تريُّث :

(دورُنا هو الحفاظ على الأمانـة بكل السُّبل). ولكن، مـا هي السبل ؟ وكيف يتم بها الحفاظ على الأمانة ؟

إن الوعـيَ والإنتباه لكل حركـة فـي الـدَّاخل والخارج هـو المـدماكُ الأساسُ لحفظ الأمانـة. والخطر كما يُتصوَّر في قـدرة العـدو، كذلك يكمن في جهل الصديق. لذلك فإني أعرض أمـام السادة الأجلاء بعض النـقاط الهامـة التي تمهد الطريق لوضوح الموقف.

ليعـلم كل مسلم أن الدولة الإسلاميـة في إيـران هي نقطة الإنطلاق في حركة التحرر الإسلامية العالمية، على ما للناس عليها مـن مآخـذ، وأن تحطيم هـذه النـواة جريمـة بحق الإسلام لا تُغتفَر. كذلك يُطلَبُ مـن هـذه الدولـة أن تعرف أنـها ليست لأبنائـها الإيرانيين وحـدهم، وإنما هي أُمٌّ لجميـع المسـلمين أينما كانوا، ويجب عليها أن تحفظهم وترعى مصالحهم، وتُصغي إلَى مطالبهم وانتقاداتهم، وأن تـرشدهم إلَى سـواء الصراط بأفضل السبل والحكمـة. ومع فتح باب الحوار والنقد البناء سنصل بـإذن الله إلَى مستوى رفيع شريف يُجَنِّبنا كل الأخطار.

كذلك، فليعلم كل ذي بصيرة مـن المسلمين أن بلدان العالم المتسلط، سـواء كانت شيطانًا أكبر أو أصغر أو أوسط، أعجز مـن أن تصنع شـيئًا عندمـا يتَّحد المسلمون ويكونون صفًّا واحدًا ويدًا واحدة، ويتمسكون بحبل الإسلام المتـين. كيـف ؟! وقـد قـرر اللـه تـعالَى أن كيـد الشـيطان كان ضعيـفًا، وأنَّـه لا سـلطان لـه على الذين آمنـوا وعلى ربـهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين

يتولَّوْنه، والذين هم بـه مشركون. قال الله تعالَى : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ﴾. فليست المشكلـة إذن منحصرة فـي خبث الشيطان وقوتـه، وإنما هي كذلك في ضعف المؤمن وانقياده للأشـرار، واستجابتـه للـدعوة الشيطانيَّة. وإذا كان شـياطين السياسـة والتبشير في العـالم يسرحون ويمـرحون في بلاد المسلمين تحت سـتار الحريَّـة، فلمـاذا لا يستعمل أذكيـاء المسلمين ودعاتُـهم سـلاح الحريَّـة هـذه ؟ وينفُذون منها في عمل متقن منظم هادف يحقق هدفين هامين :

١ ـ تغـذيـة المسلمين بثـقافـة ووعي إسـلامي، يصونهم مـن الخضوع والإنقيـاد كالقطيع أمـام موجـات التبشير مهما كان لون القـناع الذي تختبئ وراءه.

٢ ـ غزو الأمم في عقر دارهم، بنشر تعاليـم الإسلام بين شـعوب العالم كافـة عن طريق ترجمة تراثنا بدقة وأمانة وتأهيل الدعاة الناضجين لحمل هذه الأمانة. وأنـا على ثقـة تامَّـة ويقين راسخ بـأن النصر في ميدان التبشير سيكون حليفـنا، وأن الإنسان الغربي سيسرع للتحول إلَى ديـن الإسلام، ولن يَـعُوقـه عـن ذلك ما بيـديـه من حضارتـه الهشَّـة، التي لا تقـوى على منـاهضة الفـكر الإسلامي، شرط أن نعرف كيف نعرض مبادئ الإسلام ونظامه عرضًا سليمًا مـن الأخطاء والخـلط بين الأفكار. لأن الخطأ في عرض الإسـلام سيـؤدي بلا شك إلَى تشويـه صورتـه الناصعة، ويعطي الآخرين فكرة معكوسة عنه، كما يحصل مع كثير من الدعـاة الحمقى، أو مع مـن لم تهذِّب أساليبَهم الخبراتُ،

وتصقل فكرَهم التجارب. وإذا استطعنا في الحد الأدنى شَغْلَ الآخرين بالدفاع عن أفكارهم، وثبّتنا الوعي والثقافة الإسلامية في صدور أبنائنا، فإن الأجواء عندئذ ستكون مهيأة لكل بلد إسلامي يقرِّر التحرر والإستقلال سياسيًّا وفكريًّا أن يحكم نفسه بحكم الله تعالَى، ويرفرف فوق رأسه علَم الإسلام. وقد صدق الشاعر أبو القاسم الشابي حيث قال :

إذا الشعب يومًا أراد الحياة   فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي   ولا بد للقيد أن ينكسر

وفي الوقت الذي صحا فيه بعض المسلمين، استيقظ فيه كذلك أَعداء الإسلام على كل الأصعدة. ويمتاز المسلمون بالإيمان بالله تعالَى، وأن بأيديهم كتاب الله ودينُه « الإسلام ». بينما يمتاز الغرب عنا بقدراته العسكرية وتقدمه العلمي الحديث. فإذا تمكنا من مسايرة ركب التقدم العلمي وإنشاء ما نحتاجه من مصانع السلاح لمواجهة خصومنا والدفاع عن أنفسنا، فإننا عندئذ القوة الأولَى في العالم بلا ريب.

وأودُّ في هذا المجال أن أوضح أمرًا هو في غاية الأهمية، وهو أننا نحن المسلمين إنما نحتاج للآلة العسكرية فقط للدفاع عن النفس، لأننا لا نريد شرًّا بأحد، ولا نفكر بالإعتداء على أحد. ولو أن دول العالم قررت التخلي عن السلاح، ودمرت ما تملكه منه وأقفلت مصانعه، فإننا لسنا بحاجة إليه، لأننا سوف ننتقل مع خصومنا إلَى ميادين أخرى من ميادين الصراع، أوَّلُها ميدان الصراع الفكري والعقيدي. وفي أيدينا قدرة هائلة منه تغنينا عن كل سلاح،

بـل هي أكبر قوة عرفـها الإنسان : كتابُ الله المجيـد، وسُـنَّة نبيـه الكريم صلى الله عليـه وآله وسلَّم، وميراثُ أهل البيت عليهم السلام. بينما لا يملك غيرنا سـوى التحلل والتهتك، ومـرض الإيـدز (AIDS) أو (SIDA) فـي الأجسام والنفوس والأخلاق والسلوك.

ولا ينبغي لنا أن ننام على فراش الوهم والخيال ونحلم بتحقيق الأهداف السـاميـة للصحوة الإسلاميـة دون عمـل وجهـاد، لأن مجـرد وجـود القـدرة الفـكريَّـة في أيديـنا لا تنفـع شـيـئًا إذا لم نُحسِن استـعمالهـا، كما أن أعـداءنـا يتربصون بنا الدوائر ليـنالوا منَّـا غِـرَّة. ولا ننسى أن الصحوة لا تزال وليـدة في بدايـة عهدها، وهي بحاجـة إلَى حمايـةٍ مـن النكسات، حتى يصلُب عودُها، وتؤتي ثمارها المرجوَّة بـإذن الله تعالَى. كما لا يفوتـنا أن التشويش عليها يضر بها ضررًا بالـغًا، وأن تحكيم التُّـؤَدة والأنـاة خير من اندفاع غير مدروس. وإننا بعـد هذا بحاجة ماسة إلَى عمل المفكرين والروَّاد بعيدًا عن الضجـة والصخب والتصرفات الفردية غير المسؤولة.

ومما لا شك فيـه ولا ريب أن الغرب قـد سخَّر كل مـا بوسعـه للقضاء على الصحوة الإسلاميَّـة، لأنـه تنبَّـه إليها منذ البدء، وحاول دراستها جيدًا، حيث شـعر بالخطر الداهم على حضارتـه الهشَّـة، لكنـه كان عاجـزًا عن وعي كثير من الأمور، لبعده عن الآفاق الإسلامية. وعلى سبيل المثال : قضية فصل الديـن عـن الدولـة، كانت لدى الغـرب أَمرًا سهلاً للغايـة، بل كان الدين فـي نظرهم عقبـة كَـؤُودًا أمام تقدمهم، لِما عانوه مـن تصرفات الكنيسة وجَوْرها. وأما المسلمون فهم يرون أن فصل الدين عن الدولة إنما هو مؤامرة على الإسلام

خسر العالم بسببها سعادة وأمنًا واستقرارًا، ومحافظةً على كرامة الإنسان، ودفعًا هائلًا نحو الرُّقيِّ والتمدن والتحضُّر [1] في كلِّ المجالات، مما لا يمكن وصفه في هذه العجالة.

وقد تعجَّب الغرب من تمسك المسلمين بدينهم، ومطالبتهم بأن يكون الإسلام هو الحاكم في جميع شؤون الحياة. ومردُّ هذا التعجب يعود إِلَى أمرين اثنين :

الأمر الأول : إن الغرب نظر بازدراء إِلَى التخلف الفكري لدى حكام الكنيسة، الذين عارضوا بداية النهضة الصناعيَّة، ورفضوا السماح بالتطور العلمي الحديث، بل إن كنيسة أوروبا حكمت بالإعدام على كل من تسوِّل له نفسه باختيار طريقٍ للعلم غير طريق علم الكنيسة، لأنها اعتبرته إلحادًا

---

(١) الحضارة والتمدن كلمتان مترادفتان بنظر العامة. ويَجمع الفرنسيون المعنَيين بكلمة واحدة هي : « Civilisation ». والواقع أن فارقًا كبيرًا بين معنى الكلمتين في اللغة العربية، فالتمدن هو النزوح من حياة البداوة البدائية إلى حياة المدن، بما ينحصر ضمن دائرة العمران وكل ما هو ماديٌّ، كتطور وسائل النقل وكل وسائل الحياة بصورة عامة. أما التحضر فهو الإنتقال من العادات والتقاليد والقناعات المتخلفة، ومن انعدام المعارف والعلوم لدى الحياة البدوية، إلى العادات والتقاليد والقناعات والمعارف الحضرية. والحاصل إن كل ما له صلة بعالم المادة وتطورها فهو تمدن، وأما كل ما له صلة بعالم الفكر والأخلاق والسلوك فهو تحضر. لذلك فإن البلاد المتقدمة اليوم بلغت القمة في المدنية، لكنها متخلِّفة حضاريًّا، لما فيها من الفساد الأخلاقي والسلوكي الذي نخر أوصالها، وحول بيئتها المدنية المتقدمة إِلَى مجتمع هو أقرب ما يكون إِلَى بيئة الغابات.

يعاقَبُ صاحبـه بالموت. ومـن شـاء معرفـة مـا كان يـدور في الغرب أيام بدايـة النهضة الحديثة فعليه بمراجعة التاريخ.

الأمـر الثاني : بُـعدُ المسلمين عن دينهم وتقهقُرهم وانحطاطهم، حتى عجزوا عن أن يكونوا البديل الممتاز الذي يساير ركب العلم والتقدم. وسـوف تتحطم كلُّ أفكار الغرب يـوم ينهض المسلمون مـن رقـدتهم، ويكوِّنوا المجتمع الحـديث الذي يحقق كل مكاسب المجتمع الصناعي، وفي الوقت نفسه يتجنب كل أنواع الخلل والتفسخ التي تنخر أوصال المجتمع الغربي (١).

نتيجة لهذين الأمرين، فقد بات ثابتًا في ذهن الغرب تلازمٌ تام بين قيام مجتمع صناعي وبـين التفسخ الخلقي والإجتماعي، بسبب تجربتهم المريرة مع الكنيسة، وقصورهم عن وعي الإسلام، وما فيـه من الكفاءات العاليـة في مجال التربيـة للحـؤول دون السـقوط في أحضان الرذيلـة. ولا يفوتني أن أؤكـد هـنا على أن أجهـزة السلطة والإعلام والتربيـة في الغرب تساهم مساهمة فعَّـالة بل وسيِّئة إلَى أبعد الحدود في زرع الرذيلة في المجتمع ثم في رعايتها وتنميتها بصورة

(١) كتب العـالم الإسلامي الشيخ أبـو الأعلى المودودي كتـابًا ممتـازًا حول تخلف المسلمين وانحطاطهم، سـماه « مـاذا خسر العـالم بانحطاط المسلمين ». ولو أنـه اليـوم أراد أن يكتب حول هـذا الموضوع لوجد بين يديه مادة دسمة تصف له الهوة السحيقـة التي هوى فيها المسلمون، حيث تخلفوا عن ركب الإسـلام والتمـدُّن الحديث معًا، وتلهـوا بقشور لا تسمن ولا تغني مـن جـوع. كمـا بـاتت سلطات المسلمين تُـلوِّح بالإسلام شعارًا يحمي لها عروشها، بينـما هي لا تمتُّ إلَى الإسلام بصلـة، لا على مستوى القانون، ولا على مستوى السلوك. والإسلامُ مجرد دميـة يتلهون بها، ويُـلهون شعوبهم الغارقة إلَى آذانها في معاناة التفتيش عن لقمة العيش.

تدعو للإشمئزاز. وأين كل هذا من نظافة الإسلام ؟!!!

من نافلة القول التأكيد على أن الفكر الإسلامي لا يعجز على الإطلاق عن وعي الفكر الغربي، وكيفيَّة تركيب مجتمعه. بينما يتعذر على الفكر الغربي بصورته الحاليَّة أن يعيَ الفكرَ الإسلامي من كل جوانبه. وما ذاك إلا لأن الغرب قد أقام فكره وبنى مجتمعه على أسس ماديَّة صرفة، وألغى نهائيًّا دور الجانب الروحي الذي يزخر به الإسلام. فالغرب ينظر بعين واحدة، وفي اتجاه واحد، ويقارن بين تقدُّمه الصناعي وتخلف المسلمين في هذا المجال، والنتيجة الحتميَّة لديه الحكم بعدم صلاحيَّة الإسلام لبناء المجتمع الحديث. وقد جهل تمامًا الجوانب الروحيَّة السامية في الإسلام، التي تمتلك القدرات المدهشة لبناء مجتمع متطور مثالِيٍّ سليم من الآفات، والذي طالما كان أَملًا يدغدغ أحلام الإنسانية منذ فجر عهودها حتى يومنا هذا.

وحيث إن الغرب قد سار في اتجاه المادة، وألغى دور الجانب الروحي، فإنَّه قد رأى في الإسلام عدوًّا لدودًا له، فهو يسعى بكل قواه للقضاء على أيَّة صحوة إسلامية. وقد بدأ فعلًا بشن هجماته الإعلاميَّة الشرسة، واستخدام أدواته المسخرة له من أبناء المسلمين وغيرهم لإجهاض أي تحرك إسلامي يتجه نحو السلطة والإستقلال. وهو يرفض قيام أي نظام إسلامي جديد، ويحاول بشتى الأساليب إلهاء المسلمين ولو بحروب أهلية داخلية، وإلباسها ثوبًا لماعًا يغطي جميع طرق المكر والخداع ويحجب الصورة الحقيقية لمن هم وراء إشعال الحرب، ويظهر عبر إعلامه القوي أن أسباب الحرب والنزاع إنما هي قضايا داخلية، عرقيَّة كانت أو مذهبية أو إقتصادية أو حزبية، ونزاعًا على السلطة،

أو غير ذلك من أساليب التمويه للحقيقة. وما يجري الآن في الجزائر خير دليل على ما أقول، فإن الغرب قد قدَّم للشعب الجزائري مشروع حرب أهليَّة، لا يعلم إلا الله تعالَى وحده مدى آثارها الوخيمة على الشعب الجزائري بل على المنطقة بأسرها.

أما مَن الذي ينتصر في النهاية، صحوةُ المسلمين وعودتُهم إلَى تحكيم الإسلام ونُظُمه، أو قوةُ أعداء الإسلام وخططُهم، واستمرار حكم النواطير الذين يحرسون مصالح الغرب ونفوذه ؟ فإن الجواب على ذلك لا يكون بالتخمين ولا بالهتاف، وإنما يكون بعد دراسة موضوعيَّة للواقع الذي يعيشه المسلمون وحقيقة صحوتهم.

أنا أقول بصراحة ووضوح : إن العمل الإسلامي الصادق يتعرض الآن للخطر، ولا يكفي مجرد إيقاظ الناس ليواجهوا عدوَّهم، فإن المواجهة تحتاج الَى سلاح، والسلاح الأمضى هو نشر الثقافة الإسلامية الأصيلة دون تغريب أو تمويه وحمل المجتمع الإسلامي على تطبيق الدين في كل ميادين الحياة، وهو أمر يستدعي تربية جادَّة طويلة الأمد.

الحقيقة المرة أن الشعوب الإسلامية ليست كلها على ما يرام من الوعي والثقافة الدينية، وتحكيم القرآن في كل شؤونها. صحيح أن جُلَّ المسلمين لديهم فطرة الإيمان بالله ورسوله، لكنهم يجهلون الدين وأحكامه، أصولًا وفروعًا، معاملات وعبادات. إضافة إلَى أن موجة التغريب خلال عهود الإستعمار وبعد الإستقلال قد أثرت تأثيرًا بالغًا في إبعاد المسلمين عن دينهم

في كل الإتجاهات. وإذا صحا المسلمون اليوم على الأخطار الداهمة التي تهدد كيانهم ودينهم، ووقفوا يطالبون بحكم الإسلام، فذاك لا يعني أن الجميع قد تشبَّعوا بنُظُم الإسلام ومعارفه.

ولا تستغربوا أيها الإخوة الأعزاء إذا قلت لكم : إن كثيرًا جدًّا من المسلمين اليوم في العالم يودون إقامة نظام إسلامي، ولكن شرط أن لا يتدخل الحكم الإسلامي في شؤونهم الخاصة، وأن يحتفظوا بما يسمونه بالحريَّات الشخصية التي اكتسبوها من عدوهم. وعلى الأخص تلك الثقافة التي تأثروا بها عن طريق المدارس وبرامج التعليم ووسائل الإعلام. ولهذا فإن كثيرًا من المسلمين لا يرغبون في تغيير أسلوب الحياة لديهم، أللهم إلا في وجه السلطة. وهذه الحقيقة المؤلمة إنما هي نتيجة تأثُّر المسلمين بسيئات المدنية الغربية دون حسناتها، بسبب قوة العدو وضعف العمل الإسلامي المتقَن، بل وانعدامه في كثير من البلاد الإسلاميَّة. فلم يعد من السهولة بمكان عودة المسلمين بسرعة إلَى انتهاج الإسلام فكرًا وسلوكًا، بل إن ذلك يحتاج إلَى جهاد دؤوب على مختلف المستويات.

لأجل ذلك كله أقول بوضوح وقناعة : كما يكون التشبُّع بنظم الدين سببًا للمطالبة بحكم الإسلام فتنجح التجربة كما حصل في إيران، كذلك قد يكون الضياع الذي يلف العالم الإسلامي، والكرهُ لِموجات التغريب والحقدُ على الإستعمار، وفشلُ النُّظم القوميَّة والفلسفات الحديثة في رفع مستوى الإنسان، قد يكون ذلك كلُّه دافعًا للتفتيش عن الذَّات، واسترداد الهويَّة الأصلية المهجورة كما هو الحال في كثير من بلدان العالم الإسلامي التي عانت

من مآسي الإستعمار، ولم تسعد بعد استقلالها بنظام يوفر لها الرفاه والحريَّة والكرامة.

ولهذا، فقد تكون المطالبة بحكم النظام الإسلامي لدى هؤلاء مجرد تجربة جديدة بعد فشل التجارب السابقة للنُّظم الوضعيَّة، فلعل فيها شفاءً من الأمراض السَّارية لدى حكومات المسلمين المتعاقبة، ثم تكون النتيجة أن تُضاف التجربة الجديدة لحكم الإسلام إلَى قائمة النُّظم الفاشلة، بعد أن يخبوَ الحماس لدى الجماهير، ويواجهوا حقيقة التعامل بإسلام يجهلون أبسط نظمه وقوانينه. (١)

---

(١) بعد حوالِي عشرين سنة من كتابة هذا الكلام طلع علينا ما سُمِّي بالربيع العربي بثورات مسلحة تطالب بتحكيم الإسلام في أجهزة الدولة والسلطان. وكان ما كان خلال سبع سنوات ـ حتى كتابة هذه الحاشية ـ من دمار للأوطان وقتل الملايين من الأبرياء، كما حصل في العراق وسوريا واليمن والبحرين ومصر وليبيا وتونس والجزائر ومالِي ونيجيريا، ولا تزال حتى هذه اللحظة تتدحرج مشاريع الثورات العبثية، وما تخلفه من دمار وخراب، وتمزيق لوحدة البلاد والأوطان، وإشاعة الرعب والخوف بين الآمنين، وتعريض الشعوب للموت من الجوع والأوبئة التي تستشري بين الأطفال والكبار بلا رحمة ولا هوادة، وضياع الإستقرار والأمن. ولا أريد الآن أن أسترسل في التعليق على الأحداث الأليمة التي لا تزال تعصف ببلاد الشرق وإفريقيا، ولا تزال تطلب المزيد. لكن من شاء أن يطلع على الواقع المرِّ الأليم، وعلى الدوافع الخبيثة والأهداف المجرمة لكل ذلك البلاء، فليعد إلَى ما سطره التاريخ ونشره الإعلام العالمي من مآسي وكوارث عمَّت البلاد. وعلى سبيل المثال لا الحصر، في يوم ٢٠١٧/١١/٢٥ قتل إرهاب ما سمَّوْه زورًا بـ(الدولة الإسلاميَّة/داعش) أكثر من ثلاث مائة من المصلين في أحد مساجد سيناء، إضافة إلَى مئات من الجرحى، بحجة أنهم من المتصوفة ! ومنذ أيام ونحن الآن في نهاية شهر تموز سنة ٢٠١٨، قتلت داعش أكثر من مائتين وجرحت المئات في السويداء في سوريا. فهل هذه الأعمال فيها من الدين أو الأخلاق أو الإنسانية نصيب ؟

وعلى أساس هذه النظرة وفلسفة الواقع، فإذا كانت لنا حاجة في الإستفادة من الصحوة الحالية، فعلينا أن نتدارك الوضع القائم بتعليم المسلمين وتربيتهم من جديد، بجدًّ وإتقان وعلى مختلف الصُّعُد، وبشتى الأساليب. حتى يحكم الإسلامُ بيوتَ المسلمين ومجتمعاتهم في آن واحد، كما يحكم سلوكَهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم، كذلك أن يُحكِّموه فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا من قضائه، ويسلِّموا تسليمًا.

وعلى سبيل المثال، نحتاج إلَى وضع البرامج الدراسيَّة والثقافيَّة والإعلاميَّة والتربويَّة الإسلامية الهادفة. كذلك نحتاج إلَى دفعة هائلة من الدعاة الأكفاء، وتهيئة الأجواء المناسبة لزرع تعاليم الإسلام في نفوس أبناء المسلمين، وتدريبهم على السلوك والعادات والتقاليد الإسلامية، بعد التغلب على مواريث الإنحراف عن الدين.

أيها العلماء
أيها المسؤولون
أيها السادة الكرام

لا يكفي أن يقف الواعظ منا ليشن حملة صاخبة على مستمعيه، ثم يتهمهم بالفسق والإنحلال الخلقي، ويأمرهم بالعودة إلَى الإسلام. وبعد هذا يعتبر نفسه أنَّه قد أدَّى ما عليه من واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لأَنني سأفترض أن شجاعًا من القوم تصدى لهذا الداعية المتحمس وسأله : «وأين هي تعاليم الإسلام ومعارفه وأخلاقه ؟ نحن أيها الخطيب لا نعلم عنها

شيئًا ! وكان عليك أن تعلمنا كل ذلك قولًا وفعلًا، وأن تُدربنا عمليًّا على ممارسة تطبيق النظم الإسلاميَّة في واقع الحياة، قبل أن تشنَّ علينا هذه الحرب الشعواء الضروس.» أليس سيُسقَطُ بيد الداعية الطبيب ؟ حيث وضع يده على الداء، ولم يحمل معه الدواء، فزاد الجرح إيلامًا والمريض يأْسًا ؟ !

أيها السادة الكرام

إن الإستفادة من الصحوة الإسلاميَّة العتيدة لا يمكن حصولها مجانًا دون ثمن، فهي وحدها لن تكفينا المهمات. وإذا لم نوظف لها كل الطَّاقات التعليميَّة والتربويَّة، فأَحْرِ بها أن تذبل وتموت، حيث لم تجد أرضًا خصبة ولا أجواءً مناسبة. شأنها في ذلك شأن كل الموجات الفكريَّة أو القوميَّة العابرة. وما الصحوة المباركة الحاليَّة إلا امتحان للقيادات الإسلامية السياسية والعلمية والتربوية، تضعها أمام مسؤولياتها الجسام. ومن غير المعقول أن تؤتي الصحوةُ ثمارَها دون تقديم أطروحة عمل مدروسة بعناية فائقة نباشر تنفيذها منذ الآن، وقبل فوات الأوان.

وأتذكر الآن صحوة أهل الكوفة بعد فاجعة كربلاء، عندما تلاوموا لتقصيرهم في نصرة الإمام الحسين عليه السلام، حيث لم تتعدَّ صحوتُهم أن تكون شعورًا بالذنب. وما نتج عنها من ثورة التوَّابين كان أشبه بكفارة عن الذَّنْب. كذلك أتذكر صحوة المسلمين يوم أزالوا الحكم الأموي، لأنَّهم استبدلوا حكم عشيرة الأمويين بحكم عشيرة العباسيين، ثم استرخوا تحت مظلة حكمهم مستسلمين لأنواع من العسف والجور. وكانت سائر صحوات

المسلمين أشبه بانقلابات عسكريَّة، منها ما فشل، ومنها ما غير وجه النظام الحاكم فقط، دون أن تتحول الصحوة إِلَى مؤسسة علمية وتربوية هادفة تغذِّي المسلمين بالعلوم، وترُوضهم على السلوك الإسلامي السليم، لتصوغ المجتمع الإسلاميَّ المعافى من كل شائبة. وبذا يكون صُنعُ النموذج الأمثل للمجتمع الفاضل.

إذا كان من تسجيل للمواقف الجهاديَّة التي حافظت على الإسلام من أن يزول، فإني أذكر بإجلال وإكبار موقف أئمة الهدى من أهل البيت النبوي عليهم السلام، الذين جاهدوا لإيقاظ المسلمين رغم ما قوبلوا به من التعذيب والقتل. ولست الآن بصدد تأريخٍ لتلك الفترة العصيبة الحرجة، لكنني أشير إِلَى أن الأئمة صلوات الله عليهم قد قاموا بدورهم العلمي والتربوي بأسلوب هادئ بعيد عن الأضواء والضوضاء، فتخرج على أيديهم آلافٌ من العلماء، ولولاهم لم نكن لنحظَ اليوم أبدًا بهذا الكنز الثَّرِّ [أي الغزير. والمراد به الغني] والتراث الزاخر من علوم الإسلام وتربيته.

سادتي أولِي الأمر في الجمهورية الإسلامية الظافرة
أيها الإخوة الأعزاء

إليكم نداءً نابعًا من القلب، ولا أتقرب فيه لغير الله تعالَى، ولا أقول ما أقول تحدِّيًا لأحد، ولا انطلاقًا من تعصب مقيت أو عمل طائفي بغيض. إنما هي حميَّةُ إيمانٍ على جزء من المسلمين، آمل أن أُوفِّيَ بها حقًّا من حقوقهم الضائعة :

إن شيعة أهل البيت في كل أقطار الدنيا قد وُضعوا الآن تحت المجهر، أكثر من أي وقت مضى، تُحصَى عليهم أنفاسُهم، وتُحسَب لهم تحركاتهم، ويتعرضون لأَلوان من حملات التشويه في العقيدة والسلوك، إضافة إِلَى حملات مسعورة تهدف إِلَى إقناع عامة المسلمين بكفرهم، عن طريق الفتاوى التي تتطاير هنا وهناك، وقد سُخِّرت لهذه الحملات أموالٌ طائلة بلا حساب. كذلك يُقصَد من هذه الحملات الظالمة إِقناع سائر سكان العالم بأن الشيعة إنما هم قوم حاقدون معادون للبشرية، همُّهم الإرهاب والعبث بالأمن وسلامة الناس. وقد بات الكثير منهم في وضع لا يحسدون عليه، وإن الجمهوريَّة الإسلامية معنيَّة قبل غيرها بالمحافظة عليهم، ودفع الأذى ورفعه عنهم. وحتى لا يتعرضوا للضياع والإنحراف أو الضغط الشديد فإني أقترح على حكومتنا الإسلامية تشكيل إدارة خاصة تعنى بالإهتمام بأوضاع الشيعة في العالم، للأَخذ بأيديهم، وجعلهم على قدم المساواة مع إخوانهم من سائر المسلمين، حتى لا تؤَثِّر فيهم الضغوط، ولا تستأصلهم الفتن. وأضع نفسي في خدمة المسلمين والمسؤولين لإعطاء صورة واضحة وافية عن هذا الإقتراح وكيفية تحقيقه.

ولا يسعني في هذا المجال الضيق إلا أَن أَمرَّ بإشارة عابرة إِلَى الصورة المشوَّهة لواقع المسلمين في العصر الحاضر، وكيف تمزَّقوا في كل المجالات، مما يستدعي إعادة النظر في الأساليب المتبعة لوحدة المسلمين، وتطويرها، أو تبديلها. ولا شك بوجود تناحر وخلافات حادَّة بين المسلمين، في الأصول والتشريع والشعائر، وأحقاد توارثوها عبر عصور مديدة، إضافة إِلَى تمزقهم في الموقف السياسي ضد أعدائهم.

وقد أثمر هذا التناحر المقيت ثمارًا خبيثـة، استساغتها العامة وشرِقت بها الخاصة، سوى بعضٍ من علماء السوء الذين جرفهم تيار الكراهيـة وأعلنوا ولاءهـم للتمـزُّق والفُرقـة، في عمليـة تكفير واسعـة النطـاق لبعضهم البعض. ولست أذكر هذه السلبيات بهدف إيذاء بريء أو بسبب التشاؤم، وإنما أشرت إليـها لأنـها داء عضال فتـك بالجسد الإسـلامي قرونًا مـن الزمن، وإذا لم نبدأ عمليَّة علاج مناسبـة فـإن الحـديث حول وحـدة المسلمين واستثمار الصحوة حديثٌ أقرب إلَى الخيال منه إلَى الحقيقة والواقع. لذا فإني أقترح ما يلي :

١ـ إصدار فتوى شجاعـة من قِبَل جميـع المراجع الدينيين في كل بلاد العالم الإسلامي تحكم بالإسلام على كل الفِرَق والطوائف الإسلاميَّـة، سوى من خرج عن الإسلام بإلحاد أو إنكار لبعض ضرورات الدين.[1]

---

(١) وأنا أغادر المنبر أمر رئيس المؤتمر آية الله جنتي بوجوب ترجمة هذا الخطاب فورًا وطبعه وتوزيعه على المؤتمرين. ولكن ـ وبكل أسف ـ لم أسمع عن أية خطوة اتُّخِذت لعمل شيء ما مما أوردتُه من اقتراحات وملاحظات ! ولم يكن هـذا الموقف السلبي أول قـارورة كُسرت في مؤتمرات المسلمين، فقد عودتْنا مؤتمراتنا أن تكثر فيها المجاملات ومراسم الضيافـة، وتنعدم منها أيَّـة خطوة لمتابعة القرارات أو لدراسة الإقتراحات. وإذا كان السـادة الكبار لا يبالون بشيء من هـذا فـإني لا ألوم الصغار، ولا من لا حول لهم ولا طوْل إذا لم ينفِّـذوا وعـدًا أو لم يطبقوا قرارًا، أو لم يتابعوا توصيـة تحقق الأهداف التي نسعى إليها من خلال مثل هذه اللقاءات الثمينة، والتي تكلف أموالًا طائلة وجهودًا كثيرة. . .

وإذا لم نر نتيجـة لما دعوت إليـه في الماضي، فقد بادر لتحقيق جزء من هذا الحلم مراجعُ الدين للطوائف الإسلاميَّـة الكبرى في السنغال وموريتـانيا وهم مـن السنغال : سماحـة الشيخ محمد المنصور سي مرجـع الطائفـة التيجانيـة (أو التِّجانية)، وسماحـة الشيـخ صالح مبكي مرجع الطائفـة المريدية، وسماحة الشيخ محمد بو كونتا مرجع الطائفة القادرية. ومن موريتانيا سماحة الشيخ ←

٢ ـ وضع دراسة علميَّة متقنـة لأصول العقائد والشريعة الإسلاميَّـة، وحذف ما أدخلتـه السياسـة والأهـواء والإنتماءات، وتحكيم الضمير العلمي.

⟵ أسلم ولد أتقانا مرجع الطائفة القادريَّة، ثم الذي خلفه سماحة الشيـخ أتـقانا ولد أسلم. ووقعوا جميعُهم فتـاوى اعتراف صريـح بمذهب أهل البيت عليهم السلام، كما قرروا إنشاء مرجعية لهم في غرب إفريقيا، مقرها دكار عاصمة السنغال، على غرار ما لديهم من المرجعيات. وقد تم الإعلان عن ذلك في إحتفالات المولد النبوي الشريف في العاصمة الدينيَّـة للطائفة التيجانية في السنغال، والتي يحضرهـا أكثر مـن مليـون شخص وتغطيها جميع وسـائل الإعلام. وقـدَّمتُ تلك الرسائل إلَى رئيس الجمهورية السنغالية ووزير الداخلية، وهو المسؤول عن الشؤون الدينية في السنغال، حيث اتُّخِذت الإجراءاتُ اللازمة لتثبيت هـذا الأَمر رسميًّا. وقد نصت تلك الرسائل على أن مذهب أهل البيت (ع) هو مذهبٌ إسلاميٌّ أصيل يجوز التعبُّد بـه شرعًا، وأن أتباعـه هم من أهـل القبلة، لهم جميع الحقوق كما للمسلمين كافـة، وعليهم ما عليهم من الواجبات. ولحق بمراجع الدين الكبار عـددٌ مـن العلماء من ذوي الشأْن والمراتب العاليـة، وبلغت هـذه الرسائل حتى الآن عشرة رسائل، وهي شبه موحَّـدة النص... بعد ذلك قمتُ برحلـة إلَى لبـنان وإيران. وفي لبـنان سلمتُ نسخـة مـن الرسائل الأصليَّـة المتضمنة للفتاوى إلَى كلٍّ من نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى آنذاك سماحـة الشيخ عبـد الأمير قبـلان، وإلَى سماحـة الشيخ حسن عواد رئيس المحاكم الشرعيَّة الجعفريـة، وإلَى دولة رئيس المجلس النيابي اللبناني الأستاذ نبيه بري، وإلَى الأمين العـام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله. وفي إيران سلمتُ نسخًا عن تلك الرسائل إلَى سماحة الإمام القائد آيـة الله العظمى السيد علي خامنئي دام ظلـه الوارف، وإلَى إدارة المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام وإدارة المجمع العـالمي للتقريب بين المـذاهب الإسلاميَّـة في طهران، وإلَى عـدد مـن مراجـع الدين العظام في قم المقدسة أدام اللـه ظلهم الشريف. ثـم أصدرتُ كتابًا خاصًّا حول هـذا الشأن، يتضمن جميع الفتـاوى وقصة الإعتراف، وسلمت نسخًا منـه لكل من ذكرت مـن السادة الأعلام في لبـنان وإيران وللمراجع العظام في النجف الأشرف أدام الله ظلهم الشريف. وكنت آمل أن يدبَّ الحماس في نفوس مراجعنا العظام والمسؤولين عنا لاغتنام هذه الفرصة النادرة، وعمل شيء ما يكون سُنَّة يُعمل بها في التقريب بين أبناء المذاهب، وتحصين وحدتنا المنشودة، لكن المتنبي رحمه الله سبقنا بقوله :

مـا كل مـا يتمنى المـرء يدركه   تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وأنا متفائل بنتيجة نافعة رائعة لو أن علماء المسلمين جلسوا إلَى مائدة علمية، ووضعوا أَمامهم أدقَّ المشاكل وأكثرها حساسية وتعقيدًا، وعالجوها بروحٍ علميَّة بحتَة. ولو حصل هذا لكان وحده فتحًا مبينًا في عالم توحيد الأمة الإسلاميَّة. ومع الإتفاق على الأركان الأسس للعقيدة، والقواعد الهامَّة للتشريع، فإن الخلاف في الرأْي ونتائج الإستنباط الفقهي غير ضارٍّ بوحدة الأُمَّة.

٣ ـ العمل على توحيد الخط السياسي للمسلمين. وهو ما دعا إليه كثير من المفكرين، نظرًا إلَى أن عدو الإسلام والمسلمين لا ينظر إلَى عدد طوائفهم، ولا تعنيه الخلافات الفقهيَّة بينهم بشيء، لكنه ينظر إلَى تحطيم الأساس الذي بُني عليه الإسلام، وإلَى محو القرآن الكريم من الوجود. وما دام العدو واحدًا فإن الإختلاف في هذا الميدان ضرب من الجنون، حيث يؤدي إلَى أن يأكلهم عدوُّهم واحدًا تِلو الآخر. ويملكني العجب من بعض زعماء المسلمين الذين ينجرفون مع تيار أَلدِّ أعدائهم، ولا يستطيعون التفاهم مع إخوانهم، بل إن لهجتهم في حوار عدوهم ليِّنة محوطة بصادق مشاعر الودِّ والإخلاص، بينما هي مع إخوتهم خشنةٌ تلفها الشكوك والرِّيَب، ومشاعرُ ممزوجة بالخوف والحذر. ولست أدري ولا المنجم يدري لماذا لا تستعمل الزعامات الإسلاميَّة فيما بينها لغة الحوار والنقد البنَّاء، إنطلاقًا من الشعور الصادق بالأخوَّة ؟!

٤ ـ محاولة توحيد الإقتصاد الإسلامي، ولو في الحدِّ الأدنى الذي يحفظ لهم مصالحهم، ويُبقي خيراتهم لشعوبهم، بدلًا من أن يستولِي عليها

غيرنا بأيسر السبل. ولا شك أن لإنشاء سوق إسلاميَّة مشتركة أثرٌ طيبٌ في حفظ ثروات المسلمين وتيسير حياتهم، كما يكون منطلقًا لتوحيد سياساتهم، بل لتوحيدهم على أكثر من صعيد. ولا ننسى أن عالم اليوم يتحكم فيه الإقتصاد والمنافع أيَّما تحكُّم.

والذي يلوح في الأفق أن النظام الدَّوْلِي الجديد ـ بعد انهيار النظام الشيوعي ـ يسعى لتدمير أَيِّ كيان دَوْلِيٍّ لا يصب في بحر نفوذه ومصالحه. وفي تصوري أن الوقت قد حان لأن يجتمع زعماء المسلمين، ويتفاهموا على القواسم المشتركة بينهم ليحفظوا كيانهم ويخططوا لمستقبل بلادهم، ويوثِّقوا الروابط بينهم بصورة لا تزعزعها رياح السياسة الدولية القادمة.

أيها الزعماء المسلمون

إن عامة المسلمين تريد حكمًا يصون لها استقلالها وكرامتها، ويتخذ العدل أساسًا لملكه، ومصلحة الرعيَّة شعارًا لسلطانه. تريد حكمًا يهتم بجوع الفقراء وعُري المساكين، ولا يُتخَم فيه حاكم من نهب أموال الأمة. تريد حكمًا لا يحتجب فيه الحاكم عن رعيته. تريد حكَّامًا إذا إلتقوا لم يكن حديثهم حوار الطرشان. تريد حكَّامًا يتلون قوله تعالَى: ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تُفسدوا في الأرض وتُقطِّعوا أرحامكم ﴾. ولا تنسوا أيها الحكام أن الإسلام رحمٌ تربطكم بعامة المؤمنين، فكنتم وإيَّاهم إخوة بهذا النسب. إن عامة المسلمين تريد حكمًا يُنفِّذ بحق وصدق حكومة كلمة ﴿ لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﴾.

وهـذه شـذرات مـن كلمات أمـير المؤمنين الإمـام علي بـن أبي طالب عليه السلام، إقتطفتها من دوحـة الحكم الإسلامي العادل، المتمثلة في وصيته للأشتر النخعي لما ولاه على مصر :

﴿ وأَشعِر قلبـكَ الرحمـة للرعيَّـة، والمحبـةَ لهـم، واللطـفَ بـهم. ولا تكوننَّ عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلَهم، فـإنهم صنفان : إمـا أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخَـلْق. يَـفرطُ منهم الزلل، وتـعرض لهم العِـلل، ويُـؤْتى على أَيـديهم في العمـد والخطـأ. فـأعطهم مـن عفـوك وصفحـك مثـل الـذي تحبُّ وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه.

ولا تقولنَّ إنِّي مُـؤَمَّـرٌ، آمُـرُ فأُطاع. فـإن ذلك إدغال في القلب ومنهكة للدين... أنصف اللـهَ وأنصف النـاس مـن نفسك، ومـن خاصة أهلك، ومن لك هوى فيه من رعيتك، فـإنك إلَّا تفعـل تَظلم، ومـن ظلم عبادَ الله كان اللهُ خصمه دون عبـاده.... وليكن أبعـد رعيتك منـك، وأشـنأَهم عنـدك أطلبُهم لمعايب الناس، فـإن في النَّـاس عيوبًا الوالِي أحـقُّ مَـن سترها، فلا تكشفنَّ عما غاب عنك منها.

واجعل لذوي الحـاجات منك قسمًا تفرغ لهم فيـه شخصك، وتجلس لهم مجلسًا عامًّا، فتتواضع فيـه لله الذي خلقك وتُقعِد عنهم جندَك وأعوانك من أحراسك وشرطك.

وأما بعد هـذا، فلا تطولن احتجابك عن رعيتك، فإن احتجاب الولاة

عن الرعية شعبة من الضيق، وقلة علم بالأمور... إيَّاك والدماء وسفكها بغير حلها... فلا تقوينَّ سلطانك بسفك دم حرام.﴾.

سادتي العلماء
أيها الإخوة المؤمنون

إننا نبارك ونجلُّ كل ما بُذِل ويُبذَل من جهاد العلماء والمخلصين الأبرار، وتمتلئُ جوانحنا بالفخر والإعتزاز لقيام الدولة الإسلامية في إيران، ونرجو لتباشير الصحوة الإسلاميَّة في عدة نقاط من العالم أن تُتوَّج بالنجاح. ونضرع إلَى العلي القدير أن يجعل ذلك كله مما يمهد لقيام دولة العدل المرتَقبة على يد الإمام القائم المنتظِر لأمر الله. وأن يجعلنا من أنصاره وأعوانه. أللَّهم كن لوليك الحجة بن الحسن، صلواتك عليه وعلى آبائه، في هذه الساعة وفي كل ساعة وليًّا وحافظًا، وقائدًا وناصرًا، ودليلًا وعينًا، حتى تُسكِنه أرضك طوعًا، وتمتعه فيها طويلًا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عبد المنعم الزين

دكار في ١٠ رجب الحرام ١٤١٢ هجرية.
١٦ كانون الثاني ١٩٩٢ ميلادية.